





مدينة الظلام

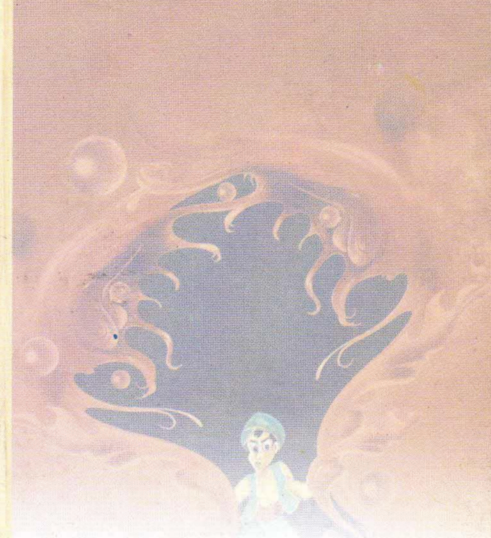
علاء الدين طعيمة

دار الدعوة



مغامرات عجيبة جدا

- سلسلة مليئة بالإثارة والتشويق
- أغرب الرحلات والمفارقات
- تجمع بين المتعة والمعرفة
- لاغنى عنها في الرحلات والبيت والمواصلات



دار الدعوة

٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية

تليفاكس: ٣٩٠١٩١٤ – ٣٩٠٧٩٩٨ / ٠٣

مغامرات عجيبة جداً

[٧٣]

جوهرة مدينة الظلام

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

رقم الإيداع القانونى: ٢١٩٩٦/٢٠٠٦م
الترقيم الدولى: X - 410 - 253 - 977

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية

تليفون: ٣٩٠١٩١٤ - فاكس: ٥٩٠١٦٩٥

تليفون المؤلف: ٠١٢/٣٧٨٢٩٦٤ - ٠٣/٤٣٦٣٩٨٠

مغامرات مؤمن

جوهرة مدينة الظلام

تأليف:

علاء الدين طعيمة

رسوم

عبد الرحمن بكر



بسم الله الرحمن الرحيم

مغامرات عجيبة جداً..

قمة الفرح أن يعثر الإنسان على تاج أثرى عتيق خال من الجواهر، ولكن تكون قمة الإثارة والمتعة عندما تتابع وتقرأ مغامرات ذلك البطل وهو يسعى للعثور على جواهر هذا التاج، إنه يسافر فى رحلات عجيبة عبر البحار والأنهار، فيتعرض للأخطار والأهوال ويرى نماذج غريبة من البشر وعجائب من الإنس والجن والأحياء والأموات، وفى كل مغامرة - بعد العناء والصراع مع المكان والزمان- يفلح فى إضافة جوهرة جديدة إلى التاج.

العين فى الحقيقة لا تبصر الأشياء بذاتها... وإنما لابد من وجود الضوء حتى ترى الأشياء... ويحدث ذلك عندما ينعكس الضوء من الشىء إلى العين... وكلما قل الضوء كلما انعدمت الرؤية.. فإذا أصبح الظلام دامسًا... فمهما اتسعت حدقة العين لا يمكنها أن ترى أى شىء... ومع ذلك فالعين مهمة وأساسية للرؤية، فإذا ضاع البصر أصبح الإنسان لا يرى شيئًا وعاش فى ظلام دائم... ومن جهة أخرى... يمكن أن تكون العين سليمة تمامًا والضوء متوفر فى كل مكان... إلا أن الإنسان - مع ذلك - يعيش فى عمى وفى ظلام وهو ما يسمى بظلام أو عمى البصيرة... وذلك لأن فى حياة المرء أشياء عديدة تُعمى البصيرة... فالجهل ظلمة والكفر بنعمة الله ظلمة والمعاصى

ظلمـة.. وكل مـا يتنافى مع الإيمان بشـعبـه يعـتـبر ظلمـة وعمى.. لذلك يحتاج الإنسـان فى حياته للإيمان وهو اليد التى مدها الله إليه كى يحـيا فى النور.. أى كى يتمكن من الرؤية، وبذلك ينجو من غياهب الظلمة ويصل فى النهاية إلى وجهـته الأخيـرة وهى الجنة... أما من اتخـذ الشيطان وليّـا ومـعـينًا... فـهـو يخـرجـه من النور إلى الظلمـات ظلمات شديدة السواد.. وحالكة دامسة... يتخبط فيها لا يرى شيئًا فيقع فى النهاية فى النار.

لأن من كـان فى الدنيـا أعمـى البصـيـرة فهـو أيضًـا سيكون فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً.. ومن نسى ذكر الله ولم يعمل به وعـاش فى عمى عن الحق.. يعمـيه الله يوم القيامة... فمـا قصة مدينة الظلام التى واجهت بطلنا مؤمن فى هذه المغامرة؟!.. هيا بنا نتابعها فوراً.

ففى يوم صيف جميل التقى أربعة من غلمان قرية يقال لها خرمثين على حدود بخارى فى بلاد فارس (إيران) كان اليوم إجازة بعد دراسة أسبوع طويل.

الهدف من اللقاء هو الفسحة.. التنزه والتمتع بالطبيعة البديعة فى فصل الربيع الجميل.

تجمع الأربعة على شاطئ النهر حيث توفر لهم قارب أو ما يسمى عند شعب الإسكندرية «فلوكة».

وضعوا أمتعتهم، وكل واحد أحضر ما يلزمه من طعام وشراب طوال اليوم، وكانوا فى سعادة بالغة..

وقفزوا إلى القارب وبدأ كل اثنين منهما يتناوبان التجديف.. ولم تكن لهم وجهة بعد هذا الإبحار السلس... فكل ما يطمحون إليه هو الإبحار... التجديف... الذهاب بالقارب إلى البحيرة الواسعة التى

يجرى النهر إليها... حيث الشمس والبراح والطبيعة ثم تناول الطعام المشترك والشراب البارد... وتبادل الحوار والنكات والمرح.

المجداف يسحب الماء الأخضر المترقرق بنور الشمس.. صوت المجراف القارب المسلى اللطيف يشعرهم بالحركة والنشاط.. الماء الساكن بقاربهم يتحرك.. يتوتر سطحه كأنه كان فى سبات ثم استيقظ ليرحب بهم.

مضى أول النهار وهم مايزالون فى تجديف وتقدم... يتركون النهر أحيانًا يجرفهم بتياره.. وتارة يجدفون.. حتى لاحت لهم البحيرة المترامية الأطراف... ولم يكن هناك أحد غيرهم فى النهر أو البحيرة.. شعروا أن كل هذه الطبيعة الرائعة ملك لهم وحدهم... وكأنهم أورثوها بانفرادهم بين ماء وخضرة وطير يغرد ويحلق هنا وهناك.



توجهوا بالقارب حتى وسط البحيرة تمامًا.. ثم توقفوا هناك والتمسوا الراحة... وأخرجوا الشراب وقام أحدهم بتوزيعه... واستلقى كل منهم فى مكانه يشرب ويتأمل جمال الطبيعة... ثم اعتدلوا وبدأوا يتجاذبون أطراف الحوار... يضحكون وهم يتكلمون... عمر وحيان وعبيد وسالم.. اختلفوا فى أسمائهم وصفات أجسادهم فمنهم الطويل والقصير والأبيض والأسمر والسمين والنحيف:

- يا جماعة.. لم يكن علينا الابتعاد عن قريتنا كل هذه المسافة.

- لا عليك يا حيان... سنرجع مبكرًا إن شاء الله.

- خوف حيان فى كلمة يا سالم... لقد قال لى أبى ذات مرة أنه لا يحب لى الابتعاد عند الإبحار عن مصب

النهر فى البحيرة... وإلا أدركنى الظلام قبل عودتى فلا يمكننى العودة.

ضحك سالم وقال وهو يسخر منهم:

- تقولون كلامًا يشبه كلام جدتى.. كل صباح وأنا ذاهب للمدرسة تحذرنى أن أسبح فى النهر وإلا انسقت إلى طريق مدينة الظلام فلا أرجع مرة أخرى.

ضحكوا إلا عبيدًا الذى تجهم وقال:

- إن جدى يؤكد هذا الكلام يا إخوان... حكى لنا كثيرًا عن مدينة الظلام.

- دعوكم من هذا الحديث المخيف بالله عليكم... وهيا بنا نتناول الغداء.. فقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا.

وبعد الأكل والراحة... وقد انتهت المواضيع التى يمكن أن يتحدثوا فيها وانتهت النكات والقفشات...

وملّوا من تكرار الأغانى التى غنوها والأناشيد التى برعوا فى أدائها.

لم يكن أمام غلمان مراهقين مثلهم إلا المزاح الثقيل، حيث تلاعب الشيطان برءوسهم فجعل الواحد منهم يسخر من الآخر فطالت الألسن ثم الأيدى... وبدأ كل واحد منهم يعيِّر الآخر ويفضح سره أمام الآخرين.. ولأنهم كانوا متقاربين فقد بدأوا يتحدثون فى أمور لا تليق بمن فى سنهم.. وبعد أن كانت رحلتهم فى بدايتها طيبة ذكروا فيها الله تعالى وأنشدوا الأغانى الدينية الطيبة.. انتهت بالضحك غير المباح والسخرية من بعضهم البعض.. فما أن نظرت إليهم هذه الساعة حتى وجدت مسخرة، فالأخلاق الطيبة تخلوا عنها بفعل الشيطان حيث نزغ الشيطان بينهم ليوقع بينهم العداوة والبغضاء.

وأهان الواحد منهم نفسه وحط من شأنها أمام الآخرين، ثم بدأ كل واحد منهم يدفع الآخر، ثم اشتبكوا بالأيدى وهم يمزحون، فاضطرب القارب بهم.. حتى سقط سالم فى الماء وأنقذوه وهم ما يزالون على تفاهتهم.. وضربوا عرض الحائط بنصيحة ذويهم بألا يبتعدوا كثيراً عن القرية والاستمرار فى الإبحار دون هدف حتى يستطيعوا العودة قبل آخر ضوء للنهار.

وبعد العصر خارت قواهم من كثرة المزاح وتكاسلوا وغلبهم النوم .. ومرت الساعات تلو بعضها وأقبل الغروب ليجعل من الطبيعة الزاهية النابضة بالحياة

مشهداً للخوف ومثالا لدنو الموت... وغابت الشمس وسقط قرصها بكسل فى أفق البحيرة.. خلف حشائش سوداء.. وبرد الهواء، وزحف الظلام.. وغاب القارب فى سواد دامس.

نامت القرية إلا بيوت هؤلاء الأربعة.. سهر الأهالى على ضفة النهر متجمعين يحملون المشاكل.. ينتظرون ولو خبراً يطمئن قلوبهم المضطربة... ومضى نصف الليل ولا من مجيب.. ولم يعد الأربعة.

استيقظ الجيران.. وحملت القوارب رجالاً يتلهفون للعثور على الغلمان الأربعة.. لكن النهر لا يتكلم.. والموج الواسع الحانى لا يكترث لما أصابهم.

توقف الرجال بقواربهم على ضفة النهر قبيل البحيرة.. فالجميع يخافون دخولها ليلاً.. ومع ذلك

حركتهم الشجاعة ووخزهم رمح المروءة.. فامتلأت البحيرة بالمشاعل وبحثوا هنا وهناك والبرد يقرص جلودهم، وأبوا العودة حتى يطلع الصبح ليروا البحيرة كلها بلا مغامرة.

وجابوها من مشرقها لمغربها.. حتى طلع الصبح عليهم فنظروا، ولم تكن البحيرة على اتساعها تخفى عن الناظرين شيئًا فى النهار.. فالأمر حينئذ فى غير حاجة للتفتيش.. وقال صياد له بيت من الغاب على طرف النهر فى القرية إنه رآهم يذهبون فى اتجاه البحيرة ولم يرهم يعودون، بينما لم يقم من مكانه يرتق شبكة بيده.

لكن أين ذهب الأربعة.. وماذا حدث لهم بعد نومهم.. قال والد أحدهم وقاربه لم يبرح البحيرة:

- لابد أن قاربهم قد علق بالوحل عند أى مكان فى شاطئ البحيرة.

توزعت القوارب فى دائرة تتسع حتى أحاطت بحواف البحيرة فى كل مكان.. ونزل الرجال فى الوحل وفتشوا فى أعواد الغاب التى يعج بها المكان.. لكن ما من أثر يذكر ولو دليل بسيط يقول إنهم كانوا هنا أو هناك.

وتمتم الرجال وأسروا بينهم حديثًا وأشاعوا فيما بينهم أن الأربعة ابتلعتهم مدينة الظلام.

بدأ اليأس يضرب على سواعدهم... فما عادوا يجدفون... بل انسل الواحد منهم تلو الآخر بالقارب الذى يبحث به عائدًا إلى النهر.

ووجد أهالى الضحايا الأربعة أنفسهم وحدهم فى البحيرة.. فظلوا حتى الغروب ثم عادوا خلفهم، الجميع رجعوا يبكون، ومرت الأيام بعضها وراء بعض.

لكن فى اليوم الذى استيقظ فـيه الأربعة بعد أن كانوا فى حـالة سكـر وعـربدة.. قـامـوا وهم يبـحـثـون عن المجدافين.. وكان ذلك فى أول الليل والظلام حالك:

- يا إلهى.. يا إلهى.. ماذا حدث؟

- يا الله... نحن فى القارب... أنحن فيه... ظننت أننى نائم على فراشى فى البيت.

- البـيت؟... يا إلهى... لـقد تـأخـرنا... تأخـرنا وهبط الليل ولابد أن أبى يبحث عنى الآن.

- انتظروا.. أين المجدافان... يا إلهى... أين المجدافان؟

- يبدو أنهما سقطا فى قاع البحيرة.

- إذاً هلم نجدف بأيدينا.

القى كل واحـد منـهم جـذعـه على جـدار القـارب يجدف مع أصحابه حتى توقفوا جميعًا:

- ماذا بك يا عبيد... لم توقفت عن التجديف.

- أين نحن يا عمر... أين نحن؟... أنا أجدف من زمن فلم أر ضفتي النهر.

- نعم يا إخوان... نحن مازلنا في البحيرة... يبدو أننا ندور في حلقة داخل البحيرة.

- نحن لا نرى أي شيء.. لا قمر ولا نجوم في السماء... إن كل شيء هنا أسود... أنا أشعر بالخوف.

- يا إلهي... التيار يجرف القارب... هل تشعرون بذلك.

- يا ربي... لكن... انتظروا... لا يوجد تيار في البحيرة... نحن لسنا في البحيرة بالتأكيد... التيار لا يكون إلا في النهر.

- لكننا لا نرى ضفتي النهر... نحن نراها في النهر ولو كان الظلام دامسًا... أين ضفتا النهر؟



- يا ربى... القارب يسرع... التيار يسرع... أين نحن؟

- لا أدرى.. لا أدرى...

ظلوا يصرخون ويبكون ويستغيثون بالفراغ... والظلام يطبق عليهم... وظل التيار تارة يسحبهم وتارة يلقيهم بمكان فيظنون أنهم قد وصلوا إلى شاطئ أو بر... يمدون أيديهم فى الماء لكن ما هو إلا الماء... الماء من جميع الجهات.

جلسوا ملتصقين.. كل منهم يرتجف من البرد والخوف... والدموع قد جفت لما بدأوا يتذكرون ويتذاكرون..:

- هل أخطأنا... هل نحن أخطأنا؟

- بالتأكيد أخطأنا يا حيان.

- هذا والله عقاب الله لنا على ما فرطنا فى جنبه.

- لماذا تظنون أنه عقاب... أخبرتكم أن الناس فى قريتنا يتحدثون عن مـدينة الظلام... ونحن لم نمتثل لنصائح الكبار وخضنا فى البحيرة حتى جن علينا الليل.

- اطمئنوا.. بعد قليل سيبـزغ الفجر وسنتمكن من رؤية المكان جيداً.

- وإن لم يطلع الفجر.

- ماذا؟

- أقول لكم أنا... أخبرتنى جدتى.

- دعك من كلام جدتك.

- انتظر... انتظروا.. أخـبرتنى جدتى أن مملـكة أو مدينة الظلام لا نهار لها.. ولا نور فيها.. هى ظلام أبدى.

- هوِّن عليك.. أتحــداك.. بعـد سـاعـات قلـيلة سنرى الشمس من جديد.. نحن مازلنا فى البـحيرة.. والتيار

فيها ولاشك يدور، كما أن البحيرة عبارة عن دائرة.. لذلك نحن ندور وندور فى دائرة.. دائرة مغلقة.. فإذا بزغ الفجر.. استطعنا أن ندفع القارب بأيدينا إلى النهر.

- أنت جد متفائل... هل تدرى كم مضى علينا فى هذا الظلام الحالك... هل تدرى...

- لقد نمنا قليلاً... و....

- انتظروا... أخبرنا.. ماذا أخبرتك جدتك أيضًا عن مدينة الظلام..؟

- بالله عليكم لا تكثروا من هذا الحديث.. أنا خائف.

- انتظر.. أخبرنا يا أخى.

- تقول جدتى إنها مدينة ولها شعب مخيف... وإن رجالا من القرية.. رجالا مثلنا.. ضاعوا فى البحيرة..

ولم يعودوا... وبين السنة والأخرى يختفى شخص هناك.

- ومن الذى أخبر جدتك أنها مدينة؟

- قالت إنه ذات مرة أتيح لأحد الصيادين أن يرجع قبل أن تبتلعه مدينة الظلام.. كان يبكى كمن ارتكب ذنبًا ثم تاب منه... وقال كلامًا وحكى عما رآه هناك... لكنه مات بعد أن ظل يقول... رأيت نور الله.. رأيت نور الله.

- يا لك من خرف أنت والأخبار التى روتها لك جدتك.

- انتظروا.. انتبهوا...

- ماذا؟

- أنصتوا... هل تشعرون بشىء؟

- يا إلهى... يا إلهى... ما هذا؟... ما هذا؟

فى تلك الأثناء كان قد مر فى القرية أكثر من ثلاثة أيام ظل الناس يبحثون فيها عن الأربعة الذين كانوا لا يشعرون ولا يعلمون بمرور الزمن... فلا يشعر بالزمن إلا من رأى تعاقب الليل والنهار... فرأى الشمس والقمر وعلم النور وميزه عن الظلام.

فى حين كان مؤمن ينتقل من بلد إلى بلد.. يجد الخطى للوصول إلى هذه القرية.. حيث أخبره التابع عنها وعن مدينة الظلام، فأتى على عجل.. ودخل القرية ذات صباح.. ولم يكن قد تناول فطوره بعد... فأول ما بحث عنه فى القرية هو المطعم بعد أن مر بمسجد فصلى فيه - كعادته عند دخول أى بلد يسافر إليها - ركعتين يشكر الله تعالى فيهما على سلامته.

وعثر على مطعم شعبى يقدم البطاطس المقلية والباذنجان المقلى وبعض الأكلات الشعبية الخاصة بهذا البلد... فتناول فطوراً مغذيًا أتبعه بكوب من الشاى بالحليب، ثم أراد أن يجيب عن نظرات رفيقه فى المائدة التى كانت متسائلة:

- أنا مؤمن... مصرى...

- أ... عفواً... أهلا بك.

- رأيتك تنظر إلىَّ كمن يتساءل.

- نعم نعم... معذرة... أنت غريب عن قريتنا ولم يدخل عندنا غرباء من سنين طويلة.. أهلا بك.

- كيف هى أحوال قريتكم؟

- بخير والحمد لله... يبدو أنك تقصد قريتنا لقريب لك فيها.

- ليس لى أقرباء هنا.

- إذاً... فى تجارة؟

- ولا فى تجارة... سأخبرك بالسبب علَّك تفيدنى وتقصرَ علىَّ طريق البحث.

- البحث عن أى شىء؟

- سأخبرك.

كان أيمن جار لصيق لأحد الأربعة الذين فقدتهم القرية... وكان جالسًا فى المطعم يتناول فطوره لأنه فى الأصل يعيش عزبًا فى بيت وحده ويعمل فى الصيد ولديه قارب قوى.. وهو يستعد للزواج فى وقت قريب... وكان ردف مؤمن على طاولة الفطور هذا الصباح. وبعدما سمع قصته وعرف خبر وصوله لهذه القرية وما يمكن أن ينتظره من مغامرات فيها..

رحب به ودعـاه إلى رحلة صيـد فى النهر حـتى يمكنه متابعـة عمله دون تضييع الصباح البـاكر حيث الرزق وفير.

لم يسـمع منه مـؤمن أى شىء حتـى ذهب معـه إلى ضـفة الـنهر حـيث كـان يربط القـارب وبداخله شـبكة حـريرية جـميـلة ومتـينة... وجلـس مؤمن أمـامـه وهو يجـدف حتى وصل إلى مـوضع متـسع من النهر فـرمى الشبكة وأثناء ذلك أخذ يتبادل معه الحوار:

- سأخبرك أنا يا مؤمن بقصة غريبة حدثت منذ أيام.

- هنا فى القرية؟

- نعم... وأعتقد أن بداية مغامرتك ستكون منها.

- أخبرنى يا أيمن فأنا فى شوق لذلك.

- أخبرتنى أنك جئت من أجل مدينة الظلام... منذ أربعة أيام على التحديد يا مؤمن.. خرج أربعة غلمان من أبناء القرية للنزهة واتجهوا نحو بحيرة فى نهاية هذا النهر... بحيرة واسعة، ثم لم يرجعوا حتى الآن.

- هل غرقوا؟

- ليس لهم أثر يذكر.. ولا حتى القارب الذى كان يقلهم.

- أمر غريب حقًا... وما علاقة البحيرة بمدينة الظلام.

- كل الأخبار القديمة تربط بينهما.. يقولون إنها هناك.

- مدينة الظلام؟

- نعم... وكنت أسمع فى طفولتى كلامًا عن ذهاب بعض الناس إلى البحيرة ثم لا يعودون.

- أمر محير حقًا... لكن... فيما يبدو أنه على الذهاب إلى البحيرة.

- أنصحك بألا تفعل يا مؤمن... فالمجهول هناك أمر مرعب حقًا.

- يا الله... لقد ثقلت الشبكة يا أيمن وأنت تسحبها.

- بسم الله.. الله أكبر.. ما كل هذا السمك.. يبدو أن وجهك وجه السعد يا مؤمن.. فالبركة تحل مع صاحبها.

- جزاك الله خيرًا يا أيمن.. دعنى أساعدك.

كانت رمية واحدة بشبكة أيمن تحمل صيدًا يكفى ويزيد عما كان يصيده فى العادة طوال اليوم... لذا فقد ساعده مؤمن وأسرعا بحمل الصيد إلى السوق مبكرًا

قبل بقية الصيادين، فباع أيمن الحصيلة كلها وربح فى ذلك اليوم ربحًا وفيراً:

- تفضل يا مؤمن.. هذا نصيبك من الصيد.. مال وفير والحمد لله.

- ماذا؟ ... لا.. عفواً.. لقد ساعدتك ولم أعمل نظير أجر.

- يا رجل.. لقد اجتهدت وربحت معى.

رفض مؤمن تمامًا أن يأخذ مالاً من أيمن.. وانتهى الخلاف إلى أن دعاه الأخير لتناول الغداء فى المطعم الفاخر على نفقته، ووافق مؤمن على الدعوة وكان الطعام لذيذًا:

- يا لها من وجبة... لم أذق الطعام المطبوخ منذ ما يزيد عن شهر فى السفر.

- هذا من فضل الله علينا يا مؤمن.. كما أننى أدعوك أيضًا لحضور حفل خطبتى غدًا إن شاء الله.

- بارك الله لكما يا صاحبى وبارك عليكما وجمع بينكما فى خير إن شاء الله. كان حفل خطبة أيمن بسيطًا وكان عليه بعد ذلك أن يجتهد فى العمل ويسرع فى تحضير لوازم الزواج والمهر بخلاف كل من هم مثله، فهناك تاجر أسماك كان يطمع فى خطيبته وتقدم لخطبتها قبله، لكن العروس كانت تريد أيمن، فلما علم الخيشوم تاجر الأسماك بأن أيمن خطبها ذهب لوالدها وعاتبه مما أحرج الرجل، فما كان منه إلا أن قال له:

- اسمع يا خيشوم.. البنت تريده.. وأنا أُريدك.. لكننى آثرت رغبتها على رغبتى.. لكن إذا لم يتجهز أيمن فى

الميعاد الذى حدده ولم يحضر لى المهر الذى اتفقنا عليه وأثاث بيت الزوجية فسوف أزوجها لك وهذا ما اتفقت عليه معه.

علم الخيشوم تاجر السمك أن نجاح أيمن فى عمله يعنى فوزه بالعروس، لذلك قرر أن يضيق عليه، وطلب من جميع التجار بما له من سطوة ونفوذ ألا يبتاعوا من أيمن ما يصيده.. فظل أيمن لأيام ثلاثة.. يصيد صيداً وفيراً فلا يبيع منه سمكة واحدة... أما مؤمن فقد كان يجوب القرية كل يوم يتسمع ما تحتويه من أخبار عن تاريخ مدينة الظلام.. ويعود ليبيت فى بيت أيمن.. وكانا نادراً ما يلتقيان وبالليل يفصلهما النوم... وبعد أسبوع علم مؤمن ما يجرى لأيمن فى سوق السمك فحزن ولم يملك حيلة لينقذه مما هو فيه.. حتى كان ذات صباح

وأيمن جالس على ضفة النهر ويده على خده.. جاءه مؤمن مسرعًا يزف بشرى:

- أيمن... أيمن... وجدتها... وجدت الحل يا أيمن وجدته.

- بالله عليك؟... هل وجدت حلاً لمشكلتى؟

- إن شاء الله... لكن... لكن الأمر يحتاج إلى بعض المجازفة.

- أنا مستعد لعمل أى شىء حتى أنال خطيبتى.

- جميل... اسمع... منذ قليل كنت فى القرية فوجدت أولياء أمر الأولاد الأربعة المفقودين فى البحيرة قد تعاونوا، وقدم كل واحد منهم أفضل ما لديه ليكون جائزة كبيرة لمن يعثر على الأولاد الأربعة.

- ماذا؟... هل... ماذا؟

- لا تكثر من التساؤل يا أيمن.. أعتقد أنه لا مجال لديك للتردد.

- إنها البحيرة يا مؤمن...

- وهى خطيبتك يا رجل...

سكت أيمن وهو مطرق لبرهة ثم رفع رأسه وقال وهو ينظر ناحية أسطول الخيشوم:

- قبلت التحدى يا خيشوم... قبلت التحدى.

قفز مؤمن فرحًا... ورحب بشجاعة صاحبه وقال له:

- تعال إذًا نعد العدة حتى نخرج ليلاً...

- ماذا؟... ولماذا لا نخرج بالنهار يا مؤمن.

- أنسيت أننا نبحث عن مدينة الظلام يا صديقى... أتعشم فقط أن نعثر على الغلمان الأربعة أحياء.

ذهبا للبيت وأعدا للرحلة الشاقة المقبلة سلاحًا وزادًا وملابس ثقيلة، وقبيل الغروب كانا على متن القارب يمخر بهما عباب النهر فى اتجاه البحيرة، ولم يكن فى وداعهما غير أهالى المفقودين وخطيبة أيمن وأمها... ثم غاب القارب فى الظلام.

وبعد ساعة وصلا إلى البحيرة وكان أيمن مضطربًا لكن مؤمن قال له:

- مالك يا رجل.. ألسنا على الحق.. فلا تحزن.. إن الله معنا... ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

كلمات بسيطة لكنها كفت المذعور المضطرب، فسكت قلبه وهدأ بالذكر، ولما أصبحا وسط البحيرة واقتحما الخوف قوى قلبه ونسى الخوف. وظلا وسط الظلام الدامس لا شىء يذكّرهما بالبحيرة إلا حفيف

الريح بسطحـها ورائحة الماء وسـواده. ومضت ساعـتان وأكثر وهما على صمت حتى قال مؤمن:

- لو كـان مع الغلمـان المجدافـان لفـرا من هذه الظلمـة أليس كذلك يا أيمن.

- بالتأكيد... لكن... مؤمن... ماذا تفعل؟

- ألق بالمجدافين يا أيمن... ولا تنعتنى بالجنون... فأنا أعلم ما أفعل. لم يعـترض أيمن.. فقد قطع عليه مـؤمن سبيل العودة إلا بالمشـقة، وفـجأة نزل عليهـما نعـاس شديد.. أخذ يتمايلان من شدة سلطان النوم. حتى غلبهما تمامًا.

وكم مر من الوقت؟!، لا يعلمان وهما يستيقظان فى وقت واحـد. وتسـاءل كل منهـمـا كم مـر من الزمن... لكن القارب بدأ ينـساق مع تيار بارد مـخيف.. فتـشبث كل منهما بالقارب ثم حدث معـهما ما حدث بعد ذلك

للغلمان الأربعة عندما صرخوا من المفاجأة، فقد لاحظ الغلمان أن القارب بدلاً من أن يتهادى مع التيار إذا به ينسحب سحبًا وبقوة حتى كادوا يسقطون من فوقه.. وكأن قوة عظيمة تجذبه بعنف ولكن بصيصًا من الضوء كان ينتظرهما يترقرق من تحت بقعة فى الماء، ثم لما اقتربا منها انفتح ما يشبه الفم العملاق فدخل التيار المائى بهما إليه.. فوجدا نفسهما فى نفق من فوقه صخور ومن تحته الماء والقارب مازال يُسحب سحبًا وإن كانت القوة قد خفت حدتها.. وظلا فى النفق المظلم الذى يأتيه ضوء خافت لا يكاد يمنع شيئًا من الرؤية من بعيد.. وظلا يتماسكان حتى وجدا نفسيهما فى النفق وقال مؤمن:

- أبشر يا صاحبى... يبدو أننا ندخل حتمًا إلى مدينة الظلام. لاحظ أيمن أن كل متاعهما القابل للحركة

مثل حبات الليمون والزجاجات قد تدحرجت شيئًا فشيئًا حتى استقرت فى مقدمة القارب:

- مؤمن... نحن ننزلق لأسفل يا مؤمن...

- نعم... أعلم ذلك... العجيب فى هذا النفق أن تياره يحافظ على اتجاه القارب فلا نميل يمينًا أو يسارًا.. لكننى فى شوق لأرى نهاية هذا النفق وما ينتظرنا فيه.

وكلما زاد الانحدار زاد انسحاب الماء لأسفل وزادت سرعة نزولهما لأسفل... حتى تحول النفق لما يشبه الشلال... وفى النهاية سقطا رأسًا على عقب فى شبكة متينة وكان حولهما كم كبير من الأسماك وفاكهة البحر وبعض الحمير الميتة والبقر والكلاب وخشب وحطام..

الصدمة كانت قوية والسقوط كان مؤلمًا والماء يهبط من أعلى بقوة وينزل تحت الشبكة فى حوض كبير.. استعاد مؤمن نباهته بسرعة وبحث عن أيمن حتى أمسك بساعده وهو يحاول أن يرى ما حوله، وسطح الشبكة المرن أفقدهما القدرة على الوقوف، فظلا منبطحين وقال أيمن والماء يملأ عينيه:

- أين نحن يا مؤمن؟

جذبه مؤمن ليزحفا ناحية طرف الشبكة بعيدًا عن شلال الماء الهابط من أعلى قدر الإمكان حتى يتمكن من رؤية ما يحيط بهما...

الضوء أصفر خافت... المكان أمامهما رحب... فيه صخب وجلبة عالية جدًا، شرارات تنطلق هنا وهناك... لمحا أشياءً تتحرك... كل ذلك والماء كان يصنع غبشًا

على العين.. مسح مـؤمن عينيه بيديه.. ونظر فـشهق ثم كتم شهقته.. بدا أمامه الأمر سريعًا.

ومسح أيمن هو الآخـر عينيه، فـوضع مؤمن يده على فـمه كى لا يصـرخ... إنها مـدينة صناعـية لا أفق يبـدو لها.. هناك مصانع كثيـرة ومداخن عالية.. لكن لا سماء لهذه المدينة غير بطن الأرض كأنه منجم.. منجم كبير لا حدود له.. هـناك أبنية هنا وهناك ولكنهـا غريبـة الشكل كأنهـا أطلال مدن سـابقة.. هناك تروس تدور وأعـمال لحـام حديد... وعـربات ومدرعـات وجنازير لا حصـر لهـا.. العـمل فى نظـام لكن المكان عـشـوائى، الدخـان يتصاعد من المداخن يميـل إلى الحمرة.. لكن المخلوقات التى فى هذه المدينة هو أغـرب ما فيـها وهو ما يسـتدعى الخوف والصراخ..

فهم ضخام الجثث.. الواحد منهم بطول ثلاثة رجال إذا وقف الواحد فوق الآخر.. وله بطن كبيرة ومنتفخة ورأسه مثل رأس الفيل فى الحجم.. بعينين كبيرتين وفك يتدلى لأسفل ولا يغلق عليه أسنان مثل أسنان الذئب.. يتساقط من حولها لعاب لا يكف عن إفرازه فم ضخم ذو شفة ساقطة متدلية وأذنين كبيرتين هما الشيء الوحيد النشط فى هذا المخلوق الذى يتحرك ببطء وكسل لثقل جسمه... وفى النهاية ذيل طويل سميك قوى مثل ذيل تمساح كبير.. كان كل شيء فى هذه المدينة يعلوه صدأ الحديد.. كل شيء صدئ.. هذا ما تراه.. لكن الحقيقة أن هذا هو لون سناج المداخن الذى لا يجد متنفسًا غير الحط على كل شيء أسفله حتى على الشعب الذى لا يجد غضاضة من ذلك.

كل شىء رغم التثاقل الكبير يتحرك فى نظام.. إنهم يصنعون شيئًا غير معروف.. ويجتهدون فى ذلك أيما اجتهاد بلا كلل ولا ملل.. فلا شمس لديهم ولا قمر غير شعلات بسيطة متناثرة هنا وهناك يخنقها دخان وسناج المصانع، فترى مدينة مظلمة تحيا فى ضوء خافت مخنوق، كلها صفراء بلون الصدأ وأرضيتها طبقات من السناج كلما ساروا عليها أو تحركوا بمعداتهم العملاقة أثاروا الغبار... فكيف ترى مدينة كهذه، أو إذا أردت تسمية لها فلن تجد غير أنها مدينة الظلام:

- مؤمن... ما هذا يا مؤمن؟

- اسمع... يبدو أن الطريق الذى جئنا منه هو طريق حصولهم على الغذاء.. وهذا تفسير الشبكة والحيوانات الميتة.

- يا إلهى.. نحن إذا فى عداد وجباتهم اليومية.

- أخشى ذلك يا أيمن.. اسمع.. هناك واحد يجر عربة يتقدم ببطء فى اتجاهنا.. وأعتقد أنه يحمل فى العربة ما يجده فى هذه الشبكة.. هيا.. اقفز معى إلى حوض الماء أسفلنا، وبسرعة وقبل أن يفطن لهما قفزا إلى حوض الماء وشعرا أن تيارًا قويًا يسحبهما لأسفل فتشبثا بجدار الحوض ثم قفزا منه إلى الأرض وأسرعا بالاختباء خلف صندوق حديدى كبير.. وشاهدا المخلوق الغريب وهو يجذب الشبكة بحديدة فى يده ثم أسقط ما كان فيها من الحيوانات فى عربته ثم أخذ يجرها، وأفجعهما المشهد لما شاهداه وقد سال لعابه، ثم أخذ فخد الحمار الميت ثم أخذ يلوكها بنهم شديد بينما يجر العربة أمامه وهو سعيد:

- مؤمن... ما الذى جئت بنا إليه يا مؤمن.
- لا تخف، ودعنا نعرف مكان الغلمان الأربعة بالله عليك. اسمع... لا يمكننا التنقل إلا بحيلة يا أيمن.. إن ملابسنا وجسدينا فى بلل كبير الآن وهذا فى صالحنا.
- كيف؟
- سنتمرغ فى هذا السناج فيلتصق بنا بفعل البلل حتى يغطينا تماما فيمكننا ساعتها التحرك بحرية، لأن هذا سيخفينا عن أعينهم تمامًا.. هيا.
- فكرة رائعة.

وكان فى الركن كومة كبيرة من السناج فتمرغا فيها حتى أصبحا كتلتين من الصدأ أو من الطين لا يمكن تمييزهما مما حولهما أبدًا.. ثم تحركا مع ذلك بخفة وسرعة وحذر.

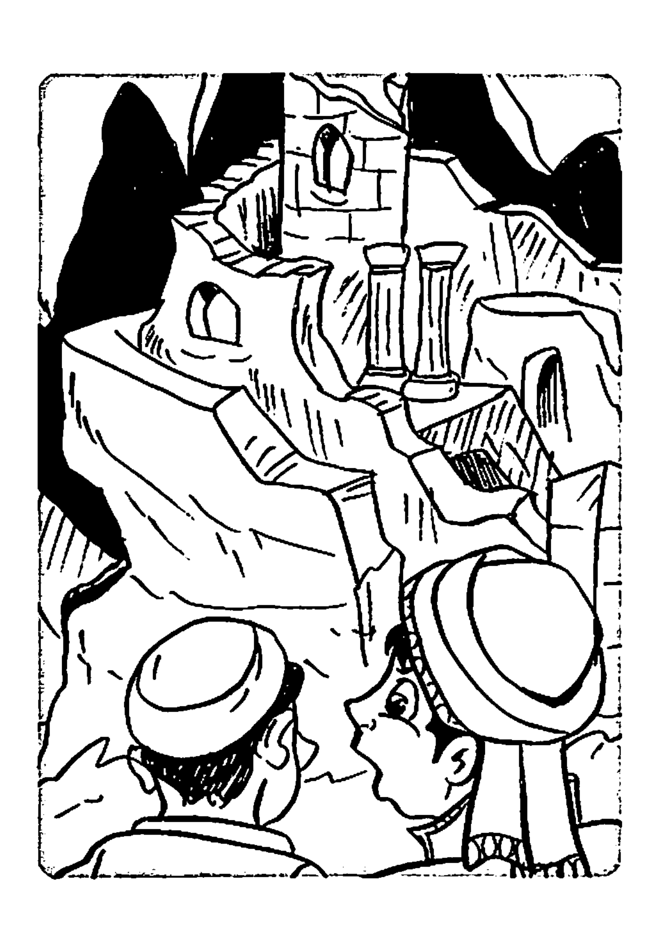
واختارا إحـدى العربات المجنزرة والتى تجوب المدينة وقفزا إليـها فأخذت المدينة تتضح معـالمها شيئا فشـيئا.. فكلهـا صناعة فى صناعـة.. لكن مـا من منتوج يظهـر.. لابد أن المصانع تخـرج فى النهاية شيـئًا يسمى إنتـاجًا.. فأين هو نتاج هذه الترسانات الكثـيرة والكبيرة.. أخذت العـربة تتحـرك وهما على جـانبهـا يشاهدان العـجب.. حتى كان نهاية القـضيب تتجه نحو مبنى كـبير أو مصنع يعد من أكـبرها... له باب عظيم.. والوضع فيـه يختلف قليلا عن خـارجه.. فالنظام أشـد.. والآلات التى تصدر السناج والنـار أدق.. وهناك بالداخل مـبـان مـنتظمـة.. فأدرك مؤمن أنه قد دخل إلى الموقع الذى تدار منه الحياة فى كل المدينة.. لاحظ أن كل الغـرف بدون أبواب.. بل

كل شىء بدون أبواب فى المدينة بأسرها.. فهؤلاء القوم لا يجدون أسرارًا يخفونها عن بعضهم البعض فالنوافذ للنظر وليست للإغلاق دون الرياح؛ فلا توجد رياح.. والأبواب للدخول والخروج فلا يوجد أثاث أو متاع لا أحد حتى يحميه.. فهم للحيوانات أقرب منهم للإنسان.

لكن مع ذلك فوجئ مؤمن أن درجًا منفردًا يؤدى إلى غرفة لها باب مقفول فصاح فى أيمن:

- أيمن... إذا لم يكن الأربعة المفقودين خلف هذا الباب فلا نتعب أنفسنا لأنهم لن يكونوا بمكان آخر فى هذه المدينة.

- أخفض من صوتك يا مؤمن.. العربة تقترب من التوقف فى نهاية المشوار.



- هيا اقفز معى... هناك مفتاح واحد فى كل المدينة.. واحد فقط لهذا الباب. أخذا يضعان فوقهما المزيد من السناج ويتحركان خلسة.. يبحثان عن مكان يمكن أن يكون فيه مفتاح الحجرة الوحيدة المغلقة.. وقال أيمن وكأنه عثر على بغيته:

- مؤمن... انظر إلى هذه الحجرة التى أمامنا.. هناك نعم.. الرجل الذى يجلس على المقعد وأمامه أزرار كثيرة.. إنه يضع فى عنقه سلسلة بمفتاح.

- يا إلهى.. بوركت يا صديقى.. إنه هو...

- لكن كيف سنحصل عليه.. يبدو هذا الرجل كأنه أهم شخصية هنا.

- نعم.. يجب أن نفكر.. فما جئنا هنا إلا لنظل فى تفكير.. فكر يا صديقى. كان الرجل أو المخلوق

كالدبابة.. وجسده المدرع يثير فى النفس الضعف، ولكن مؤمن لا يهدأ أبدًا، واعتبر أن شعور الأمان الذى يغلف الحياة فى هذه المدينة يمنحه القدرة على المباغتة والإتيان بالأمور المفاجئة، فقد تناول حديدة كبيرة وتقدم من الغرفة التى يجلس فيها صاحب المفتاح وتفاهم مع أيمن على أن الأخير يظهر نفسه للرجل خارج الغرفة.. فتحرك المخلوق لما رأى أيمن وأصيب بدهشة وقام خارجًا من الغرفة متجهًا نحوه بسرعة غير معهودة.. وعندما طل بجسمه خارجها ناوله مؤمن ضربة بالحديدة على أم رأسه فدار حول نفسه ثم سقط مغشيًا عليه.. فخطف مؤمن المفتاح من صدره.. وجرى مع أيمن إلى الغرفة المغلقة ووضع المفتاح وأداره وانفتح الباب ولكن بدلا من أن يجدوا

بغيتهم فاجأهم أحد هذه المخلوقات كان يهم بالخروج وبيده سلة فارغة... استدارا وأرادا الفرار فاصطدما بفريق كانوا قد فطنوا لهما... ووجدا أنهما وسط مصيدة!!. وهم أيمن بسحب سيفه ولكن مؤمن أومأ له بألا يفعل.. وحُملا من القفا وأُدخلا إلى الغرفة ذاتها وأغلقت خلفهما ليعثرا بداخلها على المفقودين الأربعة فى حالة يرثى لها وأمامهم طعام متعفن:

- من أنتما؟

- هل أنتم؟... يا إلهى.. عمر.. حيان.. عبيد.. سالم.. حمداً لله أنكم هنا.

- من؟.. أيمن.. أيمن الصياد؟

- أيمن.. يا إلهى..



تعارفوا وإن كان الأربعة على حالة مزرية وكان الموت أقرب إليهم من شراك نعالهم.. وعلم مؤمن أنهم لم يذوقوا الطعام.. وأن الماء نفد منهم:

- لماذا؟.. ألا يقدمون لكم الماء؟

- أبداً.. لا أدرى.. كأنهم لا يعرفون الماء ولا يشربونه.

- خذوا خذوا.. قربتى مازالت ممتلئة بالماء.

- وأنا أيضًا.. خذوا.

أقبل الأربعة على الماء بشراهة إلا أن مؤمن بينما ينظر إليهم وهم يعودون للحياة من جديد صرخ فيهم.

- لا تأتوا على كل الماء.. لا تأتوا على كل الماء.

- لا تخف.. لقد شربنا قليلاً.. لابد أن نترك لكما ما تشربانه.

- لا.. ليس هذا ما أبغيه.. لكنى بدأت أفكر فى الأمر بشكل مختلف.

نظروا إليه ثم علموا قيمة الماء بأيديهم عندما قال مؤمن:

- أتذكر يا أيمن كيف أن الرجل الذى انتزع الطعام من الشبكة لم يقترب من الماء.. بل سحبها بحديدة وتناول من الشبكة كل ما فيها وكان حريصًا ألا يلمس الماء جسده.. حتى أنه كان يستعمل أدوات لذلك..

- حتى أنه ظل ينفخ فى فخذ الحمار قبل أن يأكله.. لكن ماذا يعنى ذلك؟

- أظن أن الماء يؤذيهم.. سنقوم بمفاجأة الحارس الذى يأتى لكم بالطعام، فإذا نجح الأمر فليس أمامنا للنجاة من هنا سوء الماء.

علم مؤمن أن الرفاق الأربعة قد وضعوا على جدول وجبات خاصة بالأسرة الحاكمة فى مدينة الظلام.. وأخبروه أنهم دخلوا هذا السجن فوجدوا فيه بعض الرجال أخذوا على أيام متفرقة.. ويعتقدون أن وجبة الغذاء ستنقص سهمًا واحدًا وكانوا فى رعب كبير.

أخذ مؤمن يهدئ من روع الرفاق الأربعة.. كانوا لا ينقطعون عن البكاء وأعلنوا بدون أن يطلب منهم أنهم تابوا إلى الله.. وأخذوا يتضرعون لله قائلين:

- اللهم أخرجنا من مدينة الظلام إلى النور... أخرجنا من الظلمات إلى النور. طمأنهم مؤمن وقال لهم:

- الله ولى الذين آمنوا.. يخرجهم من الظلمات إلى النور.. والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات.. يبدو أنكم أدخلتم أنفسكم

إلى الظلام وأطعتم الطاغوت.. وها قد أرسلنى الله إليكم ليخرجكم من هذا الظلام إلى النور، فأبشروا برحمة الله تعالى.

وبعد ذلك ساعده أيمن فى جمع الماء فى قربة واحدة.. وجلسوا ينتظرون دخول الحارس مرة أخرى.. ومضى الوقت كأنه عام.. وبين الحين والآخر ينفجر أحد الرفاق الأربعة فى البكاء أو الصراخ.. فظل أيمن يهدئ من روعهم. لم يعلم أحدهم حتى الآن كنه المكان أو المدينة وماذا تفعل هذه المخلوقات وما هو هدفهم من هذه الحياة المظلمة.. وبعد قليل سمعوا خطوات الحارس الثقيلة تدق على الدرجات الحديدية.. انكمش الأربعة وأخذ كل واحد يبتعد عن الآخر، ويتأخر لكن مؤمن صرخ فيهم:

- لن يأخذ أحدًا منكم.. يجب أنت تشجعوا لأننا سنهرب من هنا. ودار المفتاح فى الباب ودخل الحارس يتفحص الوجوه وبيده شوكة رآها الرفاق الأربعة من قبل.. فهو لم يتورع من قبل أن يغرسها فى بطن الضحية المختارة.. فصرخوا.. لكن مؤمن فتح رباط فوهة قربة الماء ثم صوبها ناحية وجه الحارس وضغط عليها فانطلق الماء ليصيب الحارس فى وجهه فألقى الشوكة من يده وصرخ كأسد جريح له زئير واضعًا يديه على وجهه.. وفوجئ الجميع أن جلد وجهه أصبح يلتهب ويحترق بفعل الماء.. وقطع عليهم مؤمن دهشته عندما خطف المفتاح والشوكة الكبيرة وخرج يتبعه الباقون ثم أغلقوا الباب على الحارس.. وأسرعوا يجرون نحو أول عربة مدرعة تخرج على الفور من هذا المكان.. وصاح به أيمن:



- إلى أين يا مؤمن؟

- سنذهب مع العربة.. إنها تتجه إلى المكان الذى جئنا منه.. حيث الماء.

كانت العربة التى تسير على قضيبين تحمل كتلاً من الحديد فألقوا بأنفسهم داخلها فلم يفطن لهم أحد.. لكن المشكلة الكبيرة أنها لم تتجه حيث ظن مؤمن... بل ذهبت فى اتجاه عكسى تمامًا:

- يا إلهى.. يا إلهى.. نحن نبتعد عن مقصدنا.

وظلوا يراقبون ما حولهم.. حتى فوجئوا بنفق كبير تنطلق فيه العربة وكان صاعدًا لأعلى فلما قربت محطة النهاية طلب منهم مؤمن أن يقفزوا من العربة فقد رأى فى نهاية الطريق آلات عملاقة ورأى كمًا غفيرًا من

هؤلاء القوم يديرون آلة بأيديهم ومنهم من يجذب حبلاً عملاقًا ومنهم من يدفع كتلاً ضخمة من أذرع الآلات.. كـانوا بالآلاف.. بل ظن أيمن أنهم بـالملايين.. ولم تكن هذه الآلات العمـلاقة التى يديرونها بأيديهم على كـثرة عددهم إلا الالآت تدفع بآلة أخرى أكـبر منها فمهمـتها هى حفر الصخر:

- أرأيتم.. إنهم يحـفرون.. مـهمة هؤلاء هـى الوصول إلى سطح الأرض.

- يـا إلهـى.. لو خـــــــرج هؤلاء عـلى أهـل الأرض لالتهموهم عن بكرة أبيهم.

- لكن ليسوا قوم يأجوج ومـأجوج.. لأنهم يخافون من الماء.. ويأجوج ومأجوج إذا خرجوا سـيشربون بحيرة طبرية كلها.. فمن هؤلاء؟

- لا أدرى يا مؤمن.. لابد أنهم من أشرار الجن.. بحكم أن الجن يتشكلون وما يعنينا يا مؤمن.

- اسمعوا.. لقد واتتنى فكرة.

وقبل أن ينطق مؤمن بفكرته انطلقت صفارات فى كل مكان.. فقد فطنوا إلى هروبهم من السجن وهذا إنذار بالخطر.

وفجأة امتثل هذا الشعب للإنذار وتعطل كل شىء فى لحظة وتوقفت الآلات من العمل وتجمع أفراد الشعب العظيم العدد فى طوابير كأنهم يستعدون لحرب.. وصمت كل شىء.. وفجأة أطفئت المشاعل كلها فى لحظة وأصبح الظلام يلف كل شىء:

- ما هذا يا مؤمن.

- أنا خائف.. خائف.

- لا تراعوا.. نحن فى مـأمن هنا.. أخشى ما أخـشاه أن تكون لديهم القدرة على الرؤية فى الظلام.. اسمعوا.. هيا بنا.. سنعود على الأقدام.

- نحن لا نرى شيئا.. وسيمسكون بنا يا مؤمن.

- من الأفضل أن نتـحرك بدلاً من أن يعـثروا علينا.. ألا تلاحظون أننا نرى بعضنا.

- يا إلهى.. مـا هذا.. مـا هذا.. إن أجـسـامـنا تشع نوراً خفيفًا يا مؤمن. ابتسم قائلا:

- هذا والله نور الله.. سنعتمد عليه حتى نخرج من هنا.. اتبعونى.

بالرغم من أن أجـسامـهم فى هذا المكان الغـريب تشع بنور الإيمان.. يضىء الطريـق أمامـهم إلا أنهم أصـبحـوا ظاهرين أكثر لغيرهم.. لكن فارق السرعة كان يخدمهم..

فالمخلوقات البشعة تتحرك بثقل ولا يمكنها العدو.. فكان الرفاق يعدون خلف مؤمن.. يهتدون بنوره لأن جسمه الضئيل كان أكثرهم إشعاعًا.. وبين الحين والآخر يبدو شبح أحد المخلوقات المخيفة يحاول الإمساك بأحدهم فيصرخون وهم يتلاشونه فلا يتمكن من اللحاق بهم.

وكان ينتظرهم كمين رهيب آخر.. فعلى مسافة بعيدة شكل صف من هذه المخلوقات عائقًا كبيراً عندما صنعوا جداراً متينًا، ورأى مؤمن ذلك فتوقف حتى أتى إليه الباقون:

- لماذا توقفت يا مؤمن.. هناك من يتبعنا.

- لاحظوا أن على البعد يوجد جدار منهم.. سأذهب وحدى.. مازال معى بعض الماء.. فإذا صنعت ثغرة فاندفعوا فيها بأقصى ما لديكم من قوة.

تقدم مؤمن وهو يجرى ثم رشهم بالماء فصرخوا وتباعدوا فنادى أصحابه وتابعوا الجرى حتى لهثوا من شدة التعب. وبين الحين والآخر يظهر بعض الأعداء ثم يختفون.

كان الطريق طويلاً يحتاج إلى جلد وصبر وقوة وعزيمة.. ولكن فجأة عادت المدينة تضىء مشاعلها الغريبة وعادت المصانع تعمل بكل قوتها.. فلما فشلوا فى الإيقاع بهم فى الظلام بسبب نورهم الذى يسعى بين أيديهم.. عادوا للعمل.. ولكن فوجئ الرفاق أن ما يشبه المدفع يطلق عليهم من بعيد طلقات من الكرات الحديدية:

- احذروا.. احذروا.. انظروا خلفكم وأنتم تجرون.

ما أسهل أن تفـر إذا كنت تتمتع بالخفـة والسرعة من خـصم يخطو الخطوة بصعـوبة.. لكن أن يـطلق عليك مدفع فأنت فى حاجة لقوة أكبر ومرونة أكثر:

- اجروا.. اجروا بجانب الجدار.. أنا أرى الماء.. ها هى الشبكة.. وها هو حوض الماء.

أصـبح يطاردهم فى تلـك اللحظة شـعب بأكـمله.. كانوا يتسـابقون على ثقل حجمهم يحـملون الشوكات البـغيـضة.. خـرجوا من كل مكان ليـحيطوا بالرفـاق.. صاح أحد الأربعة:

- يا إلهى.. ما كل هؤلاء.. لقد ضعنا يا مؤمن..

- لا تيأسـوا.. تابعوا.. فـالنجاة صعـبة وشـاقة والطريق إليهـا محفوف بالمخـاطر.. اسرعوا.. اسرعـوا لنخرج من هذا الظلام. الغبار يتطاير هنا وهناك بفعل المطاردة

يزيد الجو اختناقًا.. المخلوقات البشعة تسعى خلف مؤمن كى لا يصل للحوض.. ولما أيقنوا من قدرته على النجاح قذفوه ومن معه بكل ما كان معهم من أشواك وهراوات.. فما بالك أن يرجمك شعب كبير بكل ما يملك فى لحظة يأس:

- يا إلهى.. السماء تمطر قذائف.

- الحوض.. اقفزوا فى الماء قبل أن تصابوا.

وعلى الفور كسمك يعود للماء.. قفزوا وتساقط فوقهم آلاف القذائف.. لكنهم سبحوا بعيدًا.. وعاد مؤمن يطلب منهم أن يطلوا برءوسهم فى حذر ثم قال وهو ينفث الماء من فمه:

- دعوهم يقذفوننا.. أروهم أنفسكم حتى يزيدوا فى قذفنا.

- مؤمن.. ماذا تقصد بذلك.. سيصيدوننا.

- لا.. بل سيعملون على سد الحوض بما يقذفونه.. وبذلك لن يجد الماء الهابط من أعلى سبيلا غير إغراقهم.

- يا لك من عبقرى.

بدأ الحوض ينسد.. وأخذ الماء ينساب إلى الأرض.. وبدأ الأعداء يصيبهم الذعر، وأخذوا يهربون إلى الجهة الأخرى.

- الماء لا يكف عن الهطول من أعلى البحيرة.. يغرق المكان شيئا فشيئا.. خرج مؤمن ورفاقه.. تعلقوا فى الشبكة ثم صعدوا إليها وهم يرون المصانع تعمل بأقصى قوتها فى سرعة محمومة:

- مؤمن.. إنهم يحاولون إنجاز عملهم والخروج من باطن الأرض قبل النهاية.

- لا تخف.. فلم يأذن الله بخروجهم أو بخروج قوم يأجوج ومأجوج الآن، فمازال هناك إسلام وتلاوة قرآن.. ومازال المسلمون يقرأون سورة الكهف كل يوم جمعة.. فيرجع هؤلاء إلى ما بدأوا منه. الماء يغرق الكهف الشاسع ويبيد مدينة الظلام.. الماء الذى يتطهر به المرء يعود إلى حظيرة النور والله يحب المطهرين.

بدأ الماء يصل إلى آخر المدينة.. المصانع تهوى وتنفجر.. صراخ المخلوقات البشعة يسد الآذان.. الحريق يندلع هنا وهناك:

- مؤمن.. أنا لا أحتمل هذه الأصوات.

- إذًا.. هيا بنا.

- كيف سنرجع إلى البحيرة.

- تحت قدمي منفذًا للماء.. أسده بصفحة من الحديد.. سنغوص في الماء.. لابد أنه يعود للبحيرة مرة أخرى.

- إذًا هيا بنا، فلم أعد أحتمل ما يجرى هنا.

- احبسوا أنفاسكم.. سنغوص إلى مدى لا نعلمه.. ادعوا الله أن يسلمنا..

وغاصوا في قاع الحوض وحرص مؤمن أن يسد الفتحة بعد مرور أصحابه، وسبحوا تحت الماء مسافة شعروا بعدها بأن الماء يدفعهم لأعلى فتركوا أنفسهم يصعدون وهم يرون سطح البحيرة يقترب منهم فأسرعوا.

ولأول مرة يتنفسون الهواء النقى وينظرون للشمس والطبيعة الخلابة.. فأخذوا يسبحون بهدوء إلى بر الأمان.

وعندما وصلوا إلى مصب النهر حملهم أحد الصيادين إلى القرية.

كان اليوم هو آخر موعد منحه والد العروس لأيمن.. وكان الخيشوم يجلس فى بيت العروس آملا هلاك أيمن وعدم عودته.

ولما سمع أهالى الرفاق الأربعة بوصول ذويهم سالمين تركوا ما بأيديهم وهرعوا وهرع الناس إلى النهر وأقيمت الأفراح والدموع والعناق، وأخذ الناس يتقافزون فى النهر من فرحتهم.. واستلم مؤمن وأيمن الجائزة فى حينها:

- أيمن.. لقد حصلنا على الجائزة.. مال كثير.. وجوهرة.. لك المال ولى الجوهرة.

- ماذا؟ .. لكن هذا مال كثير يا مؤمن.. أكبر مما أتخيل.. نتقاسمه.

- أنا لا أسعى خلف المال يا صديقى.. من فضلك الجوهرة لى.. وأسرع إلى بيت العروس فأنا لم أر الخيشوم بين كل هؤلاء الحضور ولم أر حماك.

- يا إلهى.. شكرًا يا مؤمن.. جزاك الله خيرًا.

وانطلق أيمن وملابسه تقطر بالماء وطرق الباب فى بيت العروس ودخل حاملا فى يده زمبيلا به المكافأة، فلما رآه الخيشوم بُهت:

- أيمن.. لقد جئت فى آخر لحظة من ميعادك.

- أحمد الله.. معى مهر العروس.. ومال يكفى ليكون عندى أسطول صيد لا يملك أحد مثله فى كل القرى حول النهر. انصرف الخيشوم خائبًا.. وجاء المأذون وعقد أيمن قرانه.. وفى اليوم التالى أقيمت الأفراح؛ أفراح الزواج وأفراح النجاة وأفراح أخرى أقامها أهل القرية ابتهاجًا بانتهاء أسطورة «مدينة الظلام» إلى الأبد.

***

حمل مؤمن جوهرته العزيزة.. وخرج من القرية بعد أن ظل أهلها يرجونه البقاء وهم يبكون لكنه قال وهو يودعهم:

- كُتب علىَّ الرحيل.. والسفر.. والمغامرة.. فهناك دائمًا مكان على وجه الأرض فى حاجة إلىَّ.. وهذا فضل الله تعالى علىَّ.. ولله الحمد والشكر.

تمت بحمد الله تعالى